اللغةُ صيرورةٌ اجتماعيةٌ ونفْسٌ عربيةٌ
(إضاءة سيبويه في مدونته)

Language is a Social Need and an Arab Self:
A Study in Sibawayh's Treatise

أ. د. رجاء عجيل الحسناوي
جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

By: Prof.Dr Rajaa Ajeel Al-Hisnawi

ملخص البحث

تعدُّ اللغة عنصراً رئيساً في إعطاء الصفة الاجتماعية للمتحدثين بها، بوصفها من أكثر الظواهر الحياتية التصاقاً بحياة الأفراد فتتجسد فيها مقاييس المجتمع وأعرافه وتقاليده وثقافته فلا تدعُه مقرّة أنّها صنوه الكاشف عنه. ولما كان مدار فَهْم الكلام والقدرة على تحليله إنّما يكون بالنظر إليه في إطار اجتماعي فقد أفرزت جهود سيبويه في كتابه أفكاراً قيّمة في التحليل النحوي ،انعكس ذلك بوضوح في معالجاته التفسيرية للظواهر اللغوية الجارية على ألسنة المتكلّمين بمعطياتها وأصولها ،بما لا ينأى عمّا بلغه البحث الألسني الحديث .

إنّ الحصافة التي نأملها لبحثنا هذا مع توجّهاتنا واستزادتنا من توجّهات المحدثين نُدرك أنّ لكلّ منهج ولغة خصوصية، إلّا أنّ عموماً ما تتشارك به اللغات الإنسانية، ما يجعلها تتلاقى في كثير من الموارد. وهو ما يكسب هذا النوع من البحوث صفة العالمية ؛لأنّه يبحث في قضية موجودة في جميع اللغات وهي المقاصد التي تنكشف عبر الاستعمال الاجتماعي .وقد رأيت أنّ سيبويه خدم هذه الذخيرة في كتابه عن طريق مرتكزين:

الأوّل: الفاعل (المتكلّم) فكلّ اللغات تعرفه؛ لأنّ مؤدّى ما يبغيه المتكلّم هو حصول الفهم.

والآخر: الحدث بوصف اللغة حادثة تصدر عن متكلّمها بتشكيلات إنجازية.

وقد رفدنا البحث بثلاثة مباحث يتقدّمها تمهيد- فيه تفصيل مرتكزات الاستعمال - وتقفوها نتائجه وجاء:

- المبحث الأوّل موسوماً بـ (تجلّيات الاستعمال في الاستقامة والإحالة).
- والثاني : عائدية الحركة إلى الاستعمال.
- والثالث : غلبة الاستعمال الدواعي الصناعية.

إنّ هذه القراءة هي عودة واعية إلى النحو العربي القديم لكشف النقاب عن ارتكان شيخه إلى الاستعمال ،مما أبرز نسبة تقارب وتشابه بين رؤى سيبويه ورؤى الألسنيين ، نستشفّ ملامحها من دراسته الدائرة على الأصناف الخطابية ، وكيفيات صياغتها ،وهي محاولة منا لاستجلاء جهد سيبويه في حقل (الاستعمال).الذي يكون موافقاً لمقتضى المقام، جاعلاً منه مقياساً جوهرياً للاحتجاج ، وفيصلاً في الحكم على التراكيب بأنّها أصولية أو غير أصولية باعتمادٍ منه على الحسّ اللغوي نتيجة الإلْف بصيرورة التداول والتحاور الجاري بين المتكلّمين ، بما يكشف عن معرفة الجوهر الإنساني القابع في أعماق الخطاب اللساني.

Abstract

Language is an element that shows the social status of its speakers because it is strongly related to individuals' life.It reflects the standards, customs, traditions, and culture of a speech community. Because speech understanding and the ability to analyze it depends highly on social context, Sibawayh's efforts yielded valuable insights into the grammatical analysis.

The research is divided into three sections.

The first section is entitled "Manifestations of Usage in linearity and conversion".

-The second section is about diacritical marks-use dependent.

-The third section deals with the predominance of use in the production of sentences .

This study is an attentive return to the ancient Arabic grammar to reveal that its great scholar relied heavily on use, highlighting the close similarity between the visions of Sibawayh and those of linguists.

مرتكزات الاستعمال الاجتماعي في السلوك اللغوي

تروم هذه الدراسة تقديم رؤية سيبويهية لحُجيّة الاستعمال الاجتماعي انطلاقاً من منظور تشييدي-معرفي يتجاوز بعض التصورات القابلة للدحض ؛لأنّنا لا نسمح بعرض الفكرة إلا عبر نصوص سيبويه نفسها، تلك النصوص التي نصنّفها بالارتكاز على تأويلاته، وهي قراءة تستلزم بناء مفهوم الجهة البلاغية أيضاً ،بيد أنّ مثل هذه القراءة تمرّ أولاً عبر قوالب ذهنية تمكّن المتلقي من التواصل انطلاقاً من بنية مشتركة منشطرة إلى بنية فعلية ،واسمية في بعد تعليمي وتعدد نسقي .وهذا البعد التعليمي سيحيلنا بدوره إلى الكفايتين التفسيرية والتأويلية في الفكر السيبويهيّ لِما تقتضيه مقصدية الكلام من حضور الذات المؤوِلة على وفق فتح آفاق مهمة لهاتين الكفايتين ،إذ لا يمكن عزل الجانب البلاغي عن المجتمع .

ومن هنا فإنّ سيبويه لا يفوّت نصّاً إلّا بنظرة منه إلى مكوناته عبر حوار يتحاشى فيه التركيز على جانب واحد بأنْ يعرض للمسألة بإطار مجرد من الاستعمال فالارتكاز عنده يتم بدءًا على التحليل النسقي لنمط الكلام من حيث إنّ تحليل مكونات النمط ودراسة تعالقها وتنظيمها تجعل التعميم ممكناً بتأكيده أو نفيه ولاسيّما إذا بُني على فرضية عمل توجّهه وتضبط مساره . وبقدر ما يخضع النسق لتوجيهات تتطلبها مظاهر الحجاج ، فإنّها كذلك تستند إلى التجربة وشروطها التداولية.

إنّ استدعاء النظر إلى الأنماط الكلامية عبر منظورها الخطي أولاً، إنّما هو لانجذابها إلى بؤرة مركزية هي (المسند والمسند إليه)، إذ تخضع الأنماط الكلامية لآلية التفسير عن طريق مبدأين (التوافق واللا توافق) بوصفهما لغة واصفة تنحصر بينهما أشكال تلك الأنماط من حيث إنّ استقامة الكلام كامنة في نظمه

وباعتبار أنّ « بناء المعنى هو قبل كلّ شيء قضية ذريعية تداولية ترتبط بالمعرفة الخلفية وبالوضعيات الشارطة لفعل الإدراك»[١].فقد كان كتاب سيبويه مليئاً بمعالجات العدول عن القياس العقلي المنطقي المجرد فيفسّره في ضوء نظام العربية رابطاً إيّاه بالمعنى إذ يتسع هذا النظام ليستوعب تلك المعاني المختلفة ،فجاءت نصوصه مُغنية للبيب شافية كافية،ولمّا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية تعيش في حياة الناس اليومية ، فقد رأى سيبويه أن يوسّع النحو بإضافة مستوى التداول إلى البنية التركيبية الداخلية ، مما مكّنه من إعادة بناء جزء من المقتضيات التي تجعل الأقوال مقبولة تداولياً بالنظر إلى السياق التواصلي الذي تُنجز فيه ، وتقبلها الجماعة اللغوية، فلم يكن النحو عنده صناعة لفظية مجردة عن المعنى والسياق الذي يُصاغ فيه التركيب بل إنّ الأغراض والمقاصد كانت لبّ الدراسة النحوية لديه حينما أظهر عبرها الوظيفة الإبلاغية للكلام تماشياً مع قوانين المجتمع الكلامية ونواميسه التعبيرية وتلك لمحات رائدة إلى العلاقة بين اللغة وحاجات المجتمع.

إنّنا نعتضد هاهنا تأثير الفقه في بحثه النحوي من حيث إنّ الباحث في أصول الفقه واستنباط أحكام الشريعة يعتمد معرفة المقاصد التي تحملها نصوص الكتاب والسُنة «فعملية الاستنباط مترتبة على الفهم الذي يتكفل به البحث النحوي»[٢].إذ جاء أبو بشر لطلب الفقه وانصرف عنه إلى اللغة للقصة المعروفة.

ومن هنا فإنّ سيبويه في بحثه المتعمق لكلام العرب، لامَسَ واقعهم الاجتماعي عبر الفاعل(المتكلم)[٣] فالكلام عن الفاعل يعني الكلام عن الحياة ؛لأنّ وجوده يعني (الفعل والعمل)، فالأغراض ألصق بالمتكلم وبواعثه النفسية وحاجاته للتعبير عن مكنونات صدره، ولما كان كلّ شيء حادثاً لابدّ له من مُحدِث – إذ قيام الفاعل بالحدث أو العمل الذي

يدلّ عليه الفعل هو شرط أساسي لكون الفعل حقيقياً- فالكون حادث ومُحدِثه الله تعالى ،وبعبارة اللغة فاعل فعل خلْق الكون هو الله تعالى. فإنّ هذا المفهوم الديني سحبه سيبويه على منهجيته في كتابه حينما تعامل مع اللغة على أنّها مُحدَثة لا بدّ لها من مُحدِث وهو المتكلّم، فالأساس الذي قامت عليه المنظومة النحوية السيبويهية هو أساس عقدي[٤] انبنت عليه دراسته ظواهر الاستعمال التي أكدتها الدراسات اللسانية المعاصرة في إطار الطابع التداولي داخل الحياة الاجتماعية .وقد شكّل ذلك عند سيبويه نظرية لسانية تُميِّزُ من جهة التحليل والتفسير بين ميدانين لغويين «هما اللفظ الدال ومدلولاته والخطاب الذي هو كيفية استعمال هذا اللفظ ومدلولاته في الإفادة»[٥].

إنّ معرفة هذا منهلها أحرى بها أنْ تتكامل نظرتها إلى اللغة بوصفها كوناً رمزياً مطابقاً لأصله (وهو الوجود).

ووفاق ما يُستنتج من تأمّل هذا التفكير أنّ كلّ نظر ، أو تناول تفكيكي لملفوظ الكلام سيكون عبر الاستعمال ،فترى سيبويه ينطلق من أمثلة مختلفة يعرض فيها الظاهرة النحوية بما يُظهر معرفته الواسعة بها ،حينما يوضحها بالمزيد ،الأمر الذي يستدعي عمق درايته بظواهر التخاطب، وما يقتضيه من استعمالات لغوية ،مما يُمكن أنْ يدرس في إطار اللسانيات الاجتماعية والتداولية، وتمظهر هذه السمات المائزة لدرسْه نُدركها عبر قوله :« يقول الرجل: أتاني رجل. يريد واحداً في العدد لا اثنين، فيقال: ما أتاك رجلٌ أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول: أتاني رجلٌ لا امرأة. فيقال: ما أتاك رجلٌ أي امرأة أتتك .ويقول أتاني رجلٌ.أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجلٌ .أي أتاك الضعفاء»[٦] .فلا تتضح هذه الأمثلة إلّا عبر سياقاتها اللغوية ومقاماتها التخاطبية المحيطة بها، فالنصّ مرتبط عنده بمقاصد المتكلم وأحوال الخطاب ،فقد يحسن في سياق ولا يحسن في آخر. ولذا هو يأتي بهذه الزيادات الاحترازية التي استعمل فيها(أي التفسيرية)، كما في (أي: أتاك أكثر من ذلك، وأي: امرأة أتتك، وأي: في قوته ونفاذه، وأي: أتاك الضعفاء).

ويحظى عنصر المخاطب بنصيب وافر من اهتمام أبي بشر ، فإدراك المخاطب لمقاصد متكلّمه متأتٍ عبر ظرف الاستعمال ،ولاستغراق المخاطب حيّزاً واسعاً من اهتمامه فقد ذكره في باب عالج فيه فصيلة نحوية متعلقة بالأمر والنهي – وهي الإغراء والتحذير- قائلاً:

«هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أنّ الرجل مستغنٍ عن لفظك بالفعل»[٧] . وهو وجود يلحّ عليه أبو بشر حتى لو لم يكن له وجود واقعي، بل مفترض، من حيث إنّ إعادة بناء المعنى تكون عند المتلقي، ومن هنا يصبح دور المتلقي قاعدة أساسية ، فيخلق لنا سيبويه متلقياً وإنْ كان مفهوماً مجرداً، إلّا أنّه يُضمِّنه معايشة واقعية عبر تلاؤم مقصديتي سيبويه ومتلقيه، حينما يتفاعل هذا المتلقي مع النص ،فيكون مضمراً حجاجياً تتجلى لنا مكوناته عبر مفاهيم من قبيل الأفعال اللغوية، والروابط الحجاجية إذ يطرح المتلقي أسئلته ويتعاون الفكر السيبويهي مع فكر ذاك المتلقي في إيراد جواب محدّد مراعيا فيه قواعد الحدّ من جهة والمقبولية والإقناع من جهة أخرى ،فيكون الغرض الإنجازي لهذه المحاورة تعليمياً وحجاجياً في الآن نفسه.

إنّ بيان أثر المخاطب في صياغة بنية الكلام يمكن ملاحظته في نحو قوله: « وإنّما أضمروا ما يقع مظهراً استخفافاً؛ ولأنّ المخاطب يعلم ما يعني ،فجرى بمنزلة المثل، كما تقول :لا عليك وقد عرف المخاطب ما تعني أنّه لا بأس عليك، ولا ضرّ عليك»[٨] .

ومن هنا فإنّ الاستعمال اللغوي عند سيبويه علّة قوية يحتجّ بها معللاً الظواهر اللغوية ليس من جهة المتكلم فحسب، بل من جهة المخاطب أيضاً ؛لأنّ المخاطب لا يكتفي بالسماع فقط ،بل يحاول توجيه نمط الكلام بحسب قدرته على إدراك المعنى حينما يؤوله في ذهنه، يقول أبو بشر: « ومما يبطل القلب قوله: زيدٌ أخو عبد الله مجنون به إذا جعلت الأخ صفة والجنون من زيدٍ بأخيه؛ لأنّه لا يستقيم زيدٌ مجنونٌ أخو عبد الله»[٩] .فالكلام هاهنا انطوى على شيء من الغموض ،فإذا كان فهم الكلام الواقع «بحسب قصد المتكلم ،وإرادته ودواعيه»[١٠] فإنّه يترتّب على هذه القصدية أنْ تعقد رابطاً مع المتلقي(إعادة إنتاج الكلام)، لكي تتم عملية التواصل، ولما فقدت نسب نجاحها قال سيبويه أنّه لا يجيز القلب هاهنا.

ولا تنطلق نظرية التواصل السيبويهية إلّا من كلام مفهوم مبني على توطيد الشبكة العلائقية بين العناصر السياقية ، ومراعاة النظام العقلي المتحكم في ضمان الصحة الدلالية والقولية للسلوك اللغوي استعمالاً ؛ تماسُكُ ذلك يُظهره قوله: « واعلم أنّ (أنْ) لا تظهر بعد حتى وكي ،كما لا يظهر بعد (أمّا) الفعل في قولك: أمّا أنت منطلقاً انطلقت. وقد ذكر حالها فيما مضى واكتفوا عن إظهار (أنْ) بعدهما بعلم المخاطب»[١١] . فإذا مال المتكلم إلى التخفيف ، فإنّ استعمال ذلك لا يكون إلّا بعلم المخاطب .

وتغدو شرعية إنجاز هذا المبدأ عبر نص آخر يورده سيبويه ضمن محور تمثيله المقالي ببرنامجيه الكفائي والأدائي يتحصّل ذلك في «باب يُحذف المستثنى فيه استخفافاً وذلك قولك : ليس غير ،وليس إلّا. كأنّه قال: ليس إلّا ذاك ، وليس غير ذاك. ولكنّهم حذفوه تخفيفاً واكتفاءً بعلم المخاطب»[١٢]. ولمّا كان المصطلح « ظاهرة تصورية إدراكية تنتقل عبر الوعي إلى ظاهرة قصدية ثم تنتقل عبر الدلالة إلى ظاهرة مفهومية فتُصاغ عبر اللغة ظاهرة معجمية مصطلحية»[١٣] فإنّنا هاهنا نعتضد على نصوص سيبويه حينما اصطلح المحدثون على ما ورد فيها من ظاهرة التخفيف بالاقتصاد اللغوي ، إذ ذكروا أنّ الاستعمال الكثير يجعل العبارة مفهومة فلا يجد المتكلم حرجاً في لفظها.

ويغدو هذا محوراً يستند إليه صاحبنا في نصوص ولا نستغني عن نص سيبويهي آخر تحقق فيه هذا التعاقد اللغوي والذهني بين الطرفين بما يخوّله لهما من إمكانية التفاهم والتفاعل واستمرارية التواصل، فيكون هذا التعاقد بمثابة ذاكرة مشتركة بينهما نتيجة الاستعمال ما يسمح بديمومة مجريات الكلام ،ويورد أبو بشر في نطاق ذلك قول العربي (لاهٍ أبوك) فالأصل فيه (لله أبوك) .ولكنّهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفاً على اللسان ونسب القول للخليل ثم بيّن أنّ حذف الجار هاهنا ليس طريقة الكلام ولا سبيله قائلاً: « وليس كل جار يضمر؛ لأنّ المجرور داخل في الجار فصار عندهم بمنزلة حرف واحد ،فمن ثم قبح، ولكنّهم قد يضمرون الجار فيما كثُر من كلامهم ؛لأنّهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج»[١٤].

أُخر، بما ينسجم مع مبدأ عدم التناهي على صعيد الأنظمة الداخلية والخارجية. إذ يذكر في باب الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي: « وذلك قولك: إذا رأيت رجلاً متوجّهاً وجهة الحاج قاصداً في هيئة الحاج فقلت: مكةَ وربّ الكعبة حيث أنّه يريد مكة. كأنّك قلت: يريد مكة والله ٠٠٠ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾. أي: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً »[١٥] . ويتوسّع هذا الأفق في نظير كلامي آخر وهو« قوله: انته يا فلان أمراً قاصداً، فإنّما قلت: انته وائت أمراً قاصداً. إلّا أنّ هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل فإنّما ذكرت لك ذا؛ لأمثّل لك الأول به؛ لأنّه قد كثر في كلامهم حتى صار بمنزلة

المثل، فحُذف كحذفهم ما رأيت كاليوم رجلاً»[١٦].
ويغوص في معالجة حقائق لغوية تقتضيها تنوعات جارية في واقع الحياة بسياقاتها الثقافية والاجتماعية التي تستجد أمورها فتستحدث أوضاعاً متغيرة، فالمتكلم العربي يكثر من استعمال النداء لذا تُحذف ياء الإضافة من المضاف إليه لكثرة الاستعمال «فقالوا: يا بن أمّ، ويا بن عمّ. فجعلوا ذلك بمنزلة اسم واحد؛ لأنّ هذا أكثر في كلامهم ٠٠٠وإنْ شئت قلت: حذفوا الياء لكثرة هذا في كلامهم»[١٧].
وبقدر ما قدّم سيبويه من نصوص ،فإنّه بثّ فيها مخزونه الذهني المعبر عن نموذجه الفكري للاستعمال بحسب المحيط الاجتماعي فكان الاستعمال عنده بناءً لقاعدة محتجاً لها به، ومتخذاً منه عماداً بالاستناد إلى توجيه الوعي القصدي المدرك ،فلا يستقيم لدى المتكلم الإجراء التكويني للجملة إلّا بالدراية بطبيعة الاستعمال اللغوي في الوسط الذي يوجد فيه .فاللغة تحيا بالاستعمال لا بمجرد الوصف .يقول د. عبد السلام المسدي :« لا يمكن للباحث أنْ يغفل عن نباهة شيخ النحو العربي في هذا المقام ،فقد حاول صاحب الكتاب تفسير المظاهر الطارئة على بنية التراكيب النحوية في اللغة»[١٨] .
ويثير ما قدّمنا من نصوص سيبويهية القول بأنّ أبا بشر وصف العربية بالاستناد إلى (الاستعمال اللغوي) للعرب عن طريق مُساءلة سليقتهم اللغوية، ذلك الأمر الذي أصبح مدار البحوث التداولية في الاتجاه البراكماتيكي[١٩] المختص بمعالجة المحور التنفيذي في محيط المحاورات الواقعية بين المتحاورين في بقعة اللغة المشتركة بينهم.

المبحث الأول: تجليات الاستعمال في الاستقامة والإحالة[٢٠]

في مبتدأ الأمر نلفت الانتباه إلى أنّ سيبويه استقرأ فئة من حالات مرسومة للكلام المباشر الدال على الوضع الأصلي الموصل للنمط الدلالي الأولي في ذهن المتكلم فعالجها معالجة متأتية بإعادة رسم تشكيلاتها المقامية بحثاً عن ضروب العدول التي تكتنف هذه التشكيلات الأساسية على صعيدي التركيب والدلالة ، فإذا ما كانت «مهمة الوصف اللغوي هي تفسير لغة المتكلم-المستمع الفعلية وسليقته أو قدرته اللغوية ومعرفته بهذه اللغة»[٢١].
فإنّنا نرى أبا بشر يمدّ بصره ويتجاوز النظر في معالجته للتراكيب الاسنادية إلى الدلالة بحثاً عن تكافؤ بينهما يُفضي إلى توافق البناء في العربية مع صورته المستعملة، فاللغة عنده « مسلك اجتماعي يجري في نماذج معينة من الأداء وإنّ المجتمع هو الذي يحدّد هذه النماذج بطريق العرف »[٢٢].
فقد اهتدى-بانتباه-إلى أنّ اللغة يبرز وجودها عن طريق الاستعمال، أي التداول الفعلي لها حينما أضاف شروط المقبولية التداولية وذلك بتمييزه الخطاب الصحيح من المستقيم أو المحال الكذب، فحكم على نحو:«شربتُ ماء البحر» . « حملتُ الجبل» . في السيرورة الأدائية والاستعمالية بالكذب مع صحة أدلتها النظمية وتحقق الاتساق التركيبي فيها لعجزه عن الاستجابة الواقعية والمقبولية المطلوبة في الاستعمال والعرف الخطابي فضلاً عن افتقاره إلى الإحالة المقامية ذلك أنّ «الإحالة علاقة دلالية ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية إلا أنّها تخضع لقيد دلالي هو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه»[٢٣].
فقد آمن سيبويه أنّ الكلام هو النشاط البيّن للغة جاعلاً منه قريناً للنظام عن طريق تلمس العلاقات الداخلية التي تربط أعضاء الجملة الواحدة وتحليله عناصر الجملة الواحدة من جانبيها الشكلي والوظيفي متجاوزاً برؤيته هذه التفسير إلى التأويل عبر بيان كيفية تفاعل اللغة مع محيطها الاجتماعي الأوسع في

ربطها بمواقف الكلام(السياق).»وهو بهذا يتفق مع المنهج العلمي الصائب الذي أثبت أنّ تطور العلوم « لا يقوم على وصف ما يحدث بل على وصفه وتفسيره». فالتركيب عند أبي بشر صورة متكاملة من الشكل والمعنى. حينما ضبط أصنافه الخبرية مبيّناً المقبول منها عن طريق الاستعمال وهي فكرة ميّز بها التراكيب الصحيحة (الأصولية) من غير الصحيحة (غير الأصولية).

وعلى وفق تحقق شروط الصحة النحوية والدلالية فيها وغير المقبولة لفقدها تلك الشروط، فالكلام عنده « مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب. فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمسِ، وسآتيك غداً. وأمّا المحال فأنْ تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسآتيك أمسِ. وأمّا المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل وشربت ماء البحر ونحوه، وأمّا المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيدٌ يأتيك. وأشباه هذا»[٢٤].

فجملة «حملتُ الجبلَ» و«شربتُ ماءَ البحرِ» مرفوضة عند سيبويه لمخالفة المعنى للواقع الاستعمالي، فالجبل لا يصلح دلالياً أنْ يكون مفعولاً لـ (حمل) وكذلك « ماء البحر» ؛لأنّ واقع الاستعمال المحسوس لم يقدّم لنا هذه الصورة واقعاً فلا الجبل محمول ولا ماء البحر مشروب و»بمجرد تغيير المفعولين إلى ما يناسب السمات الدلالية ،فإنّ الجملة ستكون مقبولة نحو:« حملت الكتاب» و« شربت الماء» . فلا يدخل هاهنا لحن من جهة دلالة ملفوظه في علاقته بالواقع»[٢٥] . فالكلام سليم في القياس إلا أنّه في الاستعمال ليس بمنزلة السليم من جهة معناه.

ونتوصل من نص سيبويه تركيزه على جانبين اثنين: الأول: الجانب البنيوي بحسب ما تقتضيه القاعدة النحوية وتقبله.

والآخر: الجانب الخطابي، الإعلامي ، الإخباري عبر السياقات اللغوية والمقامات التخاطبية التي ترد فيها ، وهي قفزة فكرية تشير إلى تعامل سيبويه مع اللغة الخطابية الواقعية المستعملة ،لا المفترضة فكان نظرُه إلى اللغة عميقاً عن طريق التفاعل بين مستوى البنية وما يقتضيه من استعمال بالقبول إنجازاً أو غير القبول. « ويعدّ ذلك مهماً لسببين: أولهما: أنّ الكلام يعامل على أنّه شكلٌ من السلوك العرفي –الاجتماعي ، وثانيهما: وهو نتيجة منطقية لذلك .إنّ المخاطب له دوره الخاص في تحديد الشكل اللغوي الذي يستعمله المتكلّم «[٢٦].

إنّ نزوع سيبويه إلى اختيار أمثلته جملاً فعلية على وجه التحديد ،إنّما هو ارتكاز منه على أنّ الفعل بناء مشتمل على الحدث اتخذه هيكلاً يبني عليه تحليله النحوي – الدلالي ،ويتراءى مما تقدّم أنّ المظهر الواضح من الكتاب التوجه إلى التعليل للظواهر النحوية في محاولة فهم كلام العرب ، ولمّا كانت وظيفة المفسِّر السعي إلى فهم كلام الله، فقد ماثلت وظيفة سيبويه وظيفة المفسِّر - فاتحد المورد والهدف الأساسي- في إطار تبنّيه لمنهج تعليلي وتفسيري يكشف من خلاله عن المعنى النحوي للكلمة لا معناها المعجمي، بإدراك منه لطريقة العرب في كلامهم ،وبتأكيد كون اللغة التي تعامل معها لغة خطاب ،وهي مسألة لم تظهر عند غيره من النحاة المخالفين. وإثبات ذلك بعيداً عن الفرض يثبته لنا نصه وهو يسأل أستاذه فيه عن قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.[٢٧] إذ ورد جواب الشرط بالفعل الماضي وهو في الأصل مستقبل فأجابه: « هو في معنى ليفعلُنّ. كأنّه قال: ليظلُنّ. كما تقول: والله لافعلتُ ذاك أبداً. تريد معنى لا أفعل «[٢٨]. إنّ تأويل ذلك التمثيل استدعى إدراك سد جواب القسم مسد جواب الشرط. وقد ارتكن السمين الحلبي

في درّه المصون إلى نص سيبويه السابق في تفسيره الجواب الخاضع لهذا المعنى والمؤكَّد عليه قائلاً:»لظلّوا جواب القسم وهو ماضٍ لفظاً مستقبل معنى»[٢٩] . وهو موضع من مواضع كثيرة يومئ فيها سيبويه إلى أثر الاستعمال في تأليف الكلام. فالتشكيل المورفولوجي لهيكل الفعل(لظلوا) ينبعث منه معجمياً معنى الماضي، إلّا أنّه انفتح معنوياً ليُنتج دلالة استقبال، وهو عمق نظر في تحليل الكلام حينما مازه سيبويه بالاستعمال، اعتماداً على حدثية الفعل لا زمنه. وموازنة هذه الطاقة (الحدثية) في الفعل – تعبيراً -في أنّها تجري على كلام العرب، وفي القرآن الكريم، التماس ذلك يؤكّده قوله: « فإنّما أجري هذا على كلام العباد وبه أنزل القرآن»[٣٠]. ما يجعلنا نستدلّ على أنّ سيبويه في وضعه البناء النظري للغة العربية لم يكن معزولاً عن إنجازات الفقهاء والمفسّرين. ويعرج صاحبنا على نموذج آخر يعمل فيه سيبويه على شدّ فكر المخاطب وجلب انتباهه وحمله على التفكير في الحيثيات الماورائية الهادفة إلى تأطير الارتكاز المضموني في بؤرة دلالية معينة وذلك في قوله: « أُدخل فوه الحجر «[٣١].إذ يرتكن هاهنا إلى الاستعمال الذي يستدلّ على الدلالة المقصودة والمدركة عند المخاطب بفعل امتلاك القدرة التخاطبية ،وهو معيار أثبت البحث الدلالي المعاصر أهميته في توجيه المؤشر الدلالي واستكشافه[٣٢]. فهذه الهيئات التعبيرية لا تنجز « إلّا في إطار الحدود التي تحددها المعايير الاجتماعية»[٣٣].وتلك معالجة موازِنة للعناصر بين وظيفتها الاتساقية والدلالية تُؤلِّف للأفراد إحالة من دون الحاجة إلى توضيح المسوغات ،فالحقائق اللغوية والمظاهر البلاغية مضمونة صحةً.

المبحث الثاني: عائدية الحركة إلى الاستعمال.

قد ترجع الفطنة القرائية عند سيبويه إلى قيم نفسية وانفعالية عميقة حينما رأيناه يُركز على سلوك لغوي لا يستغربه جمهور الجماعة اللغوية العربية المتكلمة لنمط تُقلب فيه الحركة أثر تجاور صوتي ، يبثّ متعة إيقاعية من جهة، ويعلن عن تفكير علمي من جهة أخرى في قولهم: «هذا جحر ضبّ خرب». فالوجه عنده «الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس؛ لإنّ الخرب نعت الجحر والجحر رفع، ولكنّ بعض العرب يجره ، وليس بنعت للضب ،ولكنّه نعت للذي أضيف إلى الضب فجرّوه ؛لأنّه نكرة كالضب ،ولأنّه في موضع يقع فيه نعت الضب ،ولأنّه صار هو والضب بمنزلة اسم واحد .ألا ترى أنّك تقول: هذا حب رمان فإذا كان لك قلت: هذا حب رماني فأضفت الرمان إليك ،وليس لك الرمان إنّما لك الحب»[٣٤].

فثمة خصوصية متأتية للغة العربية هاهنا لمّح إليها أبو بشر حينما جمع بين التفكيرين الجمالي والعلمي، الجمالي بما استلطفه نطقاً، محدّداً قيمته بقوله: «وقد اتبعوا الجر الجر كما اتبعوا الكسر الكسر»[٣٥]. والعلمي بتبيانه أصول المعنى النحوي الدلالي المرتكز عليها نمط» هذا جحر ضب خرب» مفسّراً إيّاه أنّ(الخرب) نكرة في موضع يقع فيه النعت فكان والضب اسماً واحداً سوّغ للحركة الإعرابية أنْ تُقلب كسرة والوجه فيه الرفع.

وهذه التجليات السيبويهية النظرية والتطبيقية جعلها متصلة بالتفاعلات النفسية التي احتاجها المتكلم، فامتلك شجاعة كافية في عربيته، لريادة معالم التفكير التجريبي حينما ارتدت العلامة الإعرابية عن الحد، إلّا أنّه ارتدادٌ متزنٌ نهض على طبيعة لغوية استقت مقاديرها البنائية من حقيقة المرجعية اللغوية الاجتماعية المشتركة فصار هذا النمط في الكلام بقلب حركته موازياً لنمط الكلام قبل قلب الحركة بوصفه كلاماً مفهوماً مدرك المعنى من قبل المتلقي بوضوح القصد فيه بتناصف وتكامل، فقد

اتخذ سيبويه من معيارية منطق العقل حداً ينطلق منه إلى الكشف عن التفكير اللغوي مع إمساس بالتجربة الإنسانية استعمالاً، باختيار تواتر نظمي أشار إليه بقوله: « حبّ رمان». فجذّر نمط الكلام عبرها موصلاً بين البنية والمعنى استجابة لمطالب لسانية – سماعية تولدت عن حقيقة جوهر الوظيفة التعبيرية للغة العربية فلا يغدو التمييز ما بين الرفع والجر وارداً، بل أضحى طرف الرفع محيلاً على الآخر باستمداد طاقة لغوية منه إلى الجر، ولاسيما أنّ هذه الطاقة اللغوية قد صادفت نظراً ثاقباً متفهماً تجاوز بتفسيره لهذا النمط كثيراً من التساؤلات التي قد تطرح لتصوّر أنّ هذا النمط عبث تداولي – استعمالي.

ووفاق ما يُستنتج من تأمل هذا التفكير التحليلي لسيبويه أنّ الفائدة انبتت في هذا النمط على تهيئة نفسية امتدت آثارها التشكيلية إلى ضرورة استدعاء الجر بدل الرفع، في إطار قبول بعيد عن الاعتباطية للعناصر اللغوية وانتقائها الكسرة في تلاؤم لفظي بدل الضمة «ويبدو للمتفكر أنّ العلامات اللغوية التي نتلفظ بها مراراً وتكراراً، هي من أوثق الإجراءات التي تحضر من أجل إضفاء مقاييس الاستخفاف اللساني على الملفوظ اللغوي»[٣٦]. فبعض جوانب اللغة لا يمكن وصفه إلّا بالرجوع إلى الكلام على أنّه سلوك اجتماعي في المقام الأول، وقدرة المتكلم على التحكم في كلامه وفقاً للمتغيرات الاجتماعية الملابسة له فهي جزء من كفايته اللغوية ، لا تقل قيمة عن قدرته على بناء التراكيب ونظم الألفاظ ، فمقدار كبير من سلوكنا اللغوي يرتبط في الواقع بشكل وثيق بأنواع أخرى من السلوك الاجتماعي[٣٧].

والأمر الجدير بالتنويه هاهنا أنّ فهم المتلقي لهذا النمط يكون بغير التباس من حيث إنّ السياق الاجتماعي والمرجعية اللغوية المشتركة في أذهان المتخاطبين تُعين على تحديد المقصود ودرء الالتباس. الأمر الذي يُفضي إلى القول إن قرينة التبعية المعنوية أغنت « عن قرينة المطابقة في العلامة الإعرابية وهي لفظية وكان الداعي إلى ذلك داعياً موسيقياً جمالياً هو المناسبة بين المتجاورين في الحركة الإعرابية « [٣٨] لعلّ النتيجة التي نكتسبها اتخاذ أبي بشر من الاستعمال مستوى صوابياً إذا ما أُنطلق فيه من نظرة اجتماعية للغة. وقيمة هذا المعيار التأسيسي استوعبتها نصوصه في قوله: « فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسّر « [٣٩]. وقوله «فأجرِ الأشياء كما أجروها «[٤٠]. وقوله :» فليس لك في هذه الأشياء إلّا أنْ تجريها على ما أجروها «[٤١]. فهي دعوة منه في التقييد بكلام العرب في منوال كلامهم المستعمل.

ويمكننا بهذا أنْ نستحضر إلحاح أبي بشر على الوقوف على مستوى البنية الإبلاغية بتوافر عناصر الفائدة من الكلام التي توفرها مقاييس في نفوس المتخاطبين لها نظير في أعرافهم ومثاقفاتهم تبيح لهم الخروج عن القواعد الصورية.

إنّنا لا نرتجل القول هاهنا بنجاح سيبويه في الإقناع عبر ما تطلّبته رؤيته هذه بقدر ما كشفت قابلية الإقناع –عنده – عن حمل «النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده»[٤٢]. ولأهمية هذه الآصرة التماسكية اقتنع شيخ البلاغيين الجرجاني بها مؤيّداً إيّاها بقوله: « ليس الغرض بنظم الكلم أنْ توالت ألفاظها في النطق بل تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل «[٤٣].

مما يبدو أنّ سيبويه كان رائداً في توجيه النحاة نحو الاهتمام بفكرة الإتباع الحركي[٤٤] .ومايجيزه الاستعمال فيه.

ونعرض في هذا المجال أيضاً قوله عن العطف على المحلّ بـ (الواو) ،فقد أعدّ باباً لـ»ما يجري على الموضع لا على الاسم الذي قبله وذلك قولك: ليس

زيدٌ بجبانٍ ولا بخيلاً. وما زيدٌ بأخيك ولا صاحبَك والوجه فيه الجرّ؛ لأنك تريد أنْ تُشرك بين الخبرين وليس ينقض إجراؤه عليك المعنى ، وأنْ يكون آخره على أوله أولى ليكون حالهما في الباء كحالهما في غير الباء مع قربه منه»[٤٥] .فثمة فرق في المعنى بين العطف على اللفظ والعطف على المحل إذ الجرّ في المعطوف يعني التوكيد بحكم إرادة الباء أمّا النصب ففيه إشارة إلى بُعد التوكيد عن المعطوف ؛لأنّه ليس على إرادة الباء. وهو ما استدللنا عليه من قول سيبويه « وإذا قلت: ما أنت بزيد ولا قريباً منه فإنّه ليس هاهنا معنى بالباء لم يكن قبل أنْ تجيء بها»[٤٦]. أي أنّ وجود الباء يعني تكثيفاً دلالياً تتسم قيمته بالتوكيد في نص سيبويه الأول .أمّا وجودها في نصه الثاني فليس على إرادة التوكيد. لعدم تضمنه طاقة تأثيرية.

وعلى هذا النحو المعجب مضى يرسم للإتباع الحركي منهجه في ظلّ الاستعمال، فهو لم يكتفِ بالإشارة إلى أنّ التابع مجرور، أو منصوب، أو مرفوع بل يبيّن مواضعه عن طريق هذه القيم «وهكذا تأخذ الحركة عنده معناها النحوي ومعناها الاجتماعي، بل أنّه لا يتم للحركة معناها النحوي عنده ولا يستقيم ذلك إلّا إذا وقعت في أبعادها الاجتماعية الصحيحة « [٤٧].

يتكفّل بيان ذلك قوله: « فاستحسنْ من هذا ما استحسن العرب وأجزْه كما أجازته»[٤٨] ويُستشفّ مما سبق أنّ سيبويه لم يتعدّ في معالجته اللغة العربية نطاق البيئة الواقعية والتداولية لها، بتناول نماذج وعيّنات تركيبية جارية على ألسنتهم وهو ما يلتقي مع اللغويات الحديثة في معالجة الخطاب اللساني المنطوق.

المبحث الثالث: غلبة الاستعمال للدواعي الصناعية[٤٩]

تؤدّي اللغة وظيفتها بترتيب المفردات وتركيبها، لتبلغ غايتها في الإفادة، وهي الإفهام؛ لأنّ «العبارة تقوم منطقياً على ترتيب الكلمات، وأنّ هذا الترتيب يعبر بآن واحد عن حاصل الفكرة وتحليل القول مهما كانت اللغة التي يتم فيها هذا الغرض»[٥٠] .

واستقرأ حقيقة مفادها إدراك سيبويه أن نظم الكلمات في التركيب هو قوام النحو فقد عوّل عليه في تحديد المستوى الدلالي للتركيب النحوي، ولاسيما في تناوله التقديم والتأخير، فهذا التغيير البنيوي يحقق أغراضاً كثيرة أهمها العناية والاهتمام ظاهرة ، إذ يقول:» كأنّهم يقدمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإنْ كان جميعاً يهمانهم ويعنيانهم « [٥١].

وقد احتجّ صاحبنا باستعمال بعض الجوازات التركيبية في ممارسات العرب الكلامية كنمط يحاولون به وجهاً [٥٢] من وجوه العربية، تطبيق ذلك جاء في قول مرار الفقعسي:

«صددتِ فأطولتِ الصدود وقلّما
وصالٌ على طول الصدود يدومُ

وإنّما الكلام وقلّ ما يدوم وصالٌ «[٥٣].

يتجلى تحليل البنية الفعلية لـ (قلّ) أنّه إذا دخلت عليه (ما) كفته عن عمل الرفع وبامتلاكها هذه الصورة الاستعمالية أسعفت أنْ يكون (وصالٌ) [٥٤] فاعلاً للفعل المؤخر (يدوم). وهذا التحليل للهيئة السطحية يدعم حالات وأوضاعاً مقامية تستجيب لحاجات المواقف الحياتية التي تلتقي معها في الغاية الفكرية والمقصدية الأدائية.

فالمتكلم يختار ما يرغب في إيصاله بناءً على عوامل متعددة في المقام الاتصالي، وحالما يحدد المعنى يتعّين عليه استعمال عيّنات اللغة التركيبية ونماذجها التي يبتغي عن طريقها إيصال المعنى، وقد يُفضّلُ شكلاً على آخر من أجل تقديم معنى انفعالي معين، أو لأنّه يود أن يجعل جزءًا ما أكثر بروزاً من جزء آخر، والبروز سمة خطابية جعلها سيبويه هاهنا بتقديم الفاعل على فعله» وتقديم الفاعل كثيراً ما يكون معناه اختصاص الفاعل بالفعل أو إثباته له ونفيه عما عداه»[٥٥] .

ومن ثم فقد اقتضى فعل الإدراك على هذا التقديم معنى الفاعلية بلحاظ قوله: « وإنّما الكلام وقلّ ما يدوم وصالٌ « وهو معنى يستحيل ملاحظته عند جعل المتقدم متعلقاً بالابتداء ، وتقدير فاعل بعد الفعل المسند أصلاً إلى الاسم المتقدم، فتحوّلُ الفاعل إلى مبتدأ يفقده معنى اختصاص الفاعل بالفعل ،أو إثباته له .فيرسم أبو بشر لأبناء اللغة أنْ يساوقوا بين المتغيرات الخارجية والوجوه الجائزة المناسبة عند استعمال اللغة وقد أثبت البحث اللساني الحديث صحة استنتاج سيبويه بشأن تحصيل دلالة العناية والاهتمام جراء حدوث التقديم لمواضع العناصر المتأخرة، فالتقديم عملية لسانية تنطوي على تحويل مكوّن في الجملة إلى موضوع بارز تُعلّق عليه بقية الجملة [٥٦] .

ولا ريب أنّ هذا المقصود التفصيلي من نص سيبويه السابق يسحبنا إلى الإقرار بحجيّة الاستعمال في درْسه النحوي ،حينما اتبع طريقة أسس فيها لحكم مرتكز على الشكل والمعنى، فإذا وُجِد تغيير في التركيب نتيجة تغيير في المعنى من دون إخلال بالفائدة التي يؤدّيها المقول كان التغيير مثمراً ،فالشعر نمط من أنماط الكلام يضفي باستعماله شرعية على بعض التراكيب المتحررة في رتبها المقيدة أصلاً [٥٧] فمخالفة القواعد النحوية في تعاملات العرب ومحاوراتهم الاتصالية جعلته يوازن بين الهيئة النواة والهيئة المستحدثة مرتكناً إلى الاستعمال الذي يولّدها معطياً نسبة من القوة لهذه الطاقة التصريحية ، والإمكانية الاستيعابية والمعرفية عند المخاطب للمضمون الدلالي حتى أصبح الاستعمال معياراً جوهرياً ،إذ يقول: « فهذا أقوى من أنْ أُحدِث شيئاً لم تتكلم به العرب «[٥٨] .

وليست هذه القيم اصطناعاً سيبويهياً بقدر ما هي دليل استعمالي في مجتمعه. ويُثني ابن جني ثناء مدح على سيبويه، حينما طرد قاعدة التقديم بأنّها للعناية والاهتمام قائلاً: « ولمّا كان النحويون العرب لاحقين وعلى سمتهم آخذين وبألفاظهم متحلّين ولمعانيهم وقصودهم آمّين جاز لصاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه وشرّع أوضاعه ورسم أشكاله ...أنْ يرى فيه نحواً مما رأوا ويحذو على أمثلتهم التي حذوا وأنْ يعتقد في هذا الموضع نحواً مما اعتقدوا في أمثاله، لاسيما والقياس إليه مُصغٍ، وله قابل، وعنه غير متثاقل ، فاعرف إذا مانحن عليه للعرب مذهباً ولمن شرح لغاتها مُضطرباً ،وأنّ سيبويه لاحقٌ بهم، وغير بعيد فيه عنهم، ولذلك عندنا لم يتعقب هذا الموضع أحدٌ من أصحابه ولا غيرهم ولا أضافوه إلى مانَعَوه عليه ،وإنْ كان بحمد الله ساقطاً عنه وحريٌ بالاعتذار هم منه»[٥٩] .

ومما يبدو من معالجات سيبويه أنّ له نظرة استقرائية عميقة لظواهر التخاطب والمشافهة الجارية بين الناس والتي تبرز في استعمالاتهم المختلفة للغة بحسب ما تقتضيه الأحوال فربما تقتضي المعايير المقررة في النظام شيئاً، إلّا أنّ الاستعمال يفرض شيئاً آخر من جهة التوسع في التعبير والخروج عن الاستعمال الاعتيادي للغة ما دام مؤدّى ذلك إلى غير لبس في المعنى ، ويصل به إلى الغاية التي يهدف إليها .فالترتيب يقوم وظيفياً بتحليل الجملة على مبدأ البروز الدلالي .

ونكرر متكئين على أساس رياضي في تعداد النماذج اللغوية المعالَجة في كتاب سيبويه بوصفها واقعاً استعمالياً فسَحَ نطاقه بإيراد تطبيقات لعيّنات كلامية متداولة تتجاذبها معايير النظام في بنيته الخطابية من جهة ومعايير المنزلة الاجتماعية من جهة أخرى .ويحصل الانسجام بالاستعمال، فتكون طبيعة بناء التركيب العربي عبر صدوره عن كلام العرب ،وهو ما انعكس صداه في الاسم الموصول في خصيصة دخول الفاء على الخطاب الإخباري الاسمي، فتتمركز دلالة الجزاء على بنيته السطحية ، فيسلك مسلكه لعلاقة مقاربة، مما يكسبه قيمة دلالية أخصب من إمكانيته الأصلية الأولية فقد أورد «الذي يأتيني فله درهمان «[٦٠] . مشيراً إلى أنّ المخاطب «جعل الآخر

جواباً للأوّل، وجعل الأوّل به يجب له الدرهمان، فدخلت (الفاء) هاهنا ،كما دخلت في الجزاء إذا قال : (إنْ يأتِني فله درهمان) «[٦١] . ويورد أبو بشر هذا النمط مجرّداً من دلالة الجزاء، في الاستعمال اللغوي فيُقال (الذي يأتيني له درهمان)[٦٢]. ويُعيّن الخيوط الدلالية لهذه الازدواجية الإخبارية الجزائية في التركيب النظمي للاسم الموصول قائلاً: « إنّه إنّما أدخل (الفاء) لتكون العطية مع وقوع الإتيان، فإذا قال) :له درهمان) فقد يكون أنْ لا يوجب له ذلك الإتيان، فإذا أدخل (الفاء) فإنّما يجعل الإتيان سبب ذلك، فهذا جزاءٌ، وإنْ لم يُجزم ؛لأنّه صلة»[٦٣]. فالجملة بغير الفاء احتمالية؛ لأنّ العطية غير مترتبة على الإتيان، بل هو مستحقه قبل ذلك. وتحتمل كذلك أنْ يكون الاسم الموصول هاهنا مشبهاً بالشرط، فالعطاء مترتب على الإتيان، فكلّ مَنْ يأتي يستحق العطية. أمّا الجملة مع (الفاء) فدلالتها قطعية من حيث إنّ المعنى فيها شرط وجزاء وهذه الفاء واقعة في جواب (الذي) وهي بمنزلة وقوعها في جواب الشرط أي العطية مترتبة على الإتيان[٦٤].

والدليل على أنّ (الذي) في معاييره النحوية يحيل على الجزاء في معاييره الاستعمالية أنّ سيبويه عقد له باباً سمّاه (باب ما تكون فيه الأسماء التي يُجازى بها بمنزلة الذي)[٦٥]. أي أنّ هذه الأسماء الموصولة يُجازى بها بإمكانية استعمالية على وفق جدولة سيبويه لها.

إنّ تعمّق سيبويه في معالجة هذا التحوير تجعلنا أمام حقيقة أنّه لم يفته ربط وقوع ذلك بدائرة المعنى. فلا يخرج منها سواء أكان مندرجاً في إطار الوصف، أم التفسير، وإلّا فهو خارج إطار اللغة. وهو ما أدركه سيبويه عملياً حينما جعل الاستعمال حجة ومقياساً لتسويغ تحليلاته النحوية، بل وتصويبها والدفاع عنها، فكانت العربية عنده حقلاً خصباً لاكتشاف الوظائف التعبيرية عن طريقه بما يعلن عن لسانيات حوار مثلت نظرية غير ذهنية للمقصدية الخطابية.

نتائج استعمالات سيبويه:

لعلّ كلّ مستطاب يعسر الانقطاع عنه وهذا هو شأن الكتاب، ننقطع عنه إلى نتائج هي:

١- خضوع اللغة لأثر الاستعمال والاعتماد عليه هو أقرب إلى روح اللغة، وأبعد ما يكون عن فلسفة الظاهرة؛ لأنّ الاستعمال لا يخضع للمنطق وهو ما اتضحت صورته في كتاب سيبويه.

٢- إنّ اعتماد الاستعمال في تحليل الظواهر وتفسيرها وتعليلها منهج عماده الحس اللغوي وقد ارتكن سيبويه إلى ذلك بالاستقراء والتتبع.

٣- قادتنا الإحاطة بمستلزمات الاستعمال (المتكلم-المخاطب –المقام) في كتاب سيبويه إلى أنْ نقول إنّ كثيراً من الأفكار التي توارثتها أجيال الحداثة إذا فُهمت حقيقة أفكارها فإنّما هي سياق تطويري لما ورد في الكتاب بما فتحه لها من منافذ للاجتهاد والاستزادة في السيرورة الطبيعية التي يتطلبها نمو الفائدة.

٤- وازن سيبويه عبر الاستعمال بين أنماط مختلفة تشكيلاً متناسقة تعبيراً، فكانت الأنماط متشاكلة تشاكلاً مكافئاً للنظام النفسي الذي يُؤطر لحظة التكلم حينما يُقدّر هذا النظام قراءة الأبعاد التواصلية اللازم اعتمادها.

٥- وظف سيبويه طاقته التأملية للإلمام بمكونات الأنماط المنقلبة وظيفياً بحكم الاستعمال، بأنّ ثمة فرقاً من جهة التكثيف الدلالي فيها، تبعا لما يسبغه المتكلم على كلامه من قيم التفهّم؛ لأنّ تأليف الكلام على لسانه مرتبط بتأليف الإفهام عند المخاطب، ومن هنا تجد أنّ افتقار المتكلم لتحفيز المخاطب يصفه سيبويه بـ (القبيح) أحياناً أو (لم يجز) إذا كان النمط فاقداً لإنتاج صورة توضّح المقصود.

الهوامش

١. البحث الدلالي ص٣٧٣.

٢. البحث النحوي عند الأصوليين ص٣٨.

٣. لا نعني بالفاعل هاهنا الوظيفة النحوية بل نعني به منفذ العملية الكلامية.

٤. رأى جورج مونان أنّ قضايا اللغة كانت ملابسة لقضايا المعتقد في كلّ الحضارات التي عُرفت بكتاب سماوي، ينظر تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ص٢٥.

٥. المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية في العالم العربي ص٣٧٩وينظر آليات تحليل الخطاب ص٢٤ والاستعمال اللغوي وعلم المخاطب في كتاب سيبويه مقال الكتروني على شبكة الفصيح.

٦. الكتاب١/٥٥.

٧. الكتاب١/٢٥٣و٣/٧.

٨. الكتاب١/٢٢٤.

٩. الكتاب ٢/٥٣.

١٠. التبصرة في أصول الفقه ص٢٣٢، وينظر أثر القراءة الافتراضية في التخريجات النحوية دراسة في التراث ص٤.

١١. الكتاب ٣/:٧، و ينظر ٢/٦و٢/٢٩٧.

١٢. الكتاب ٢/٣٤٤.

١٣. المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم ص٢٠٤-٢٠٥، وينظر التعليل بكثرة الاستعمال ص٥.

١٤. الكتاب ٢/١٦٣.

١٥. الكتاب ١/٢٥٧. والآية من سورة البقرة/١٣٥.

١٦. الكتاب ١/٢٨٤.

١٧. الكتاب ٢/٢١٤.

١٨. التفكير اللساني في الحضارة العربية ص٣٣٢.

١٩. ينظر علم اللغة الاجتماعي ص١٩وص٢٣وص٢٢٩.

٢٠. تعني الاستقامة على وفق النظر السيبويهي عدم الخروج عن القواعد والقوانين الخاصة بتركيب الجملة وقَبِله أبناء اللغة، فالكلام المستقيم ما وضعت ألفاظه في مواضعها، أمّا الإحالة فقد عرّفها سيبويه بقوله: « أنْ تنقض أول كلامك بآخره». الكتاب ١/٢٥.

٢١. الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه ص٣٢٥، وينظر النحو العربي والبنيوية واختلافها النظري والمنهجي ص٢٨وقواعد تحويلية للغة العربية ص٢٢.

٢٢. اللغة بين المعيارية والوصفية ص١٦.

٢٣. لسانيات النص ص١٧وينظر البحث الدلالي ص١٩٢-١٩٣.

٢٤. الكتاب ١/٢٥-٢٦.
٢٥. الوظيفية في كتاب سيبويه ص٧٦وينظر المدرسة الخليلية والدراسات اللسانية في العالم العربي ص٣٧٩.
وآليات تحليل الخطاب ص٢٣-٢٤.
٢٦. نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد ص٣٠.
٢٧. الروم/٥١.
٢٨. الكتاب ٣/١٠٨.
٢٩. الدر المصون ٩/٥٤.
٣٠. الكتاب ١/٣٣٢.
٣١. الكتاب ١/١٨١.
٣٢. ينظر الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ص١٢٦.وبنيوية ص٢٧٨.
٣٣. نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها ص٧.
٣٤. الكتاب ١/٤٣٦.
٣٥. الكتاب ١/٤٣٦.
٣٦. نظرية الاستثقال والاستخفاف ص١٤٤.
٣٧. ينظر أثر الأعراف الاجتماعية في مسيرة العربية ص١٥.
٣٨. اللغة العربية معناها ومبناها ص٢٣٤.
٣٩. الكتاب ١/٢٦٦.
٤٠. الكتاب ١/٤١٩، و٢/٣٩٠.
٤١. الكتاب ١/٢١٨.
٤٢. منهاج البلغاء ص٢٠.
٤٣. دلائل الإعجاز ص٤١.
٤٤. ينظر بلاغة العطف في القرآن الكريم ص٥٨، ومعاني النحو ١/٢٨٣.
٤٥. الكتاب ١/٦٧.
٤٦. الكتاب ١/٦٩.
٤٧. الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه ص٣٣٠.
٤٨. الكتاب ٢/٦٩.
٤٩. نعني بالدواعي الصناعية تلك الضوابط التي تحكم التركيب فتوجهه توجيهاً يوضّح المعنى المراد ويخضع هذا المعنى إلى التكيف معها.
٥٠. تاريخ علم اللغة ص١٤٧.
٥١. الكتاب ١/٣٤.

٥٢. يقول أبو بشر:» وليس شيء يضطرون إليه إلّا وهم يحاولون به وجهاً وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك هاهنا». الكتاب ٣٢/١.

٥٣. الكتاب ٣١/١.

٥٤. تجب ملاحظة أنّ تقديم الفاعل على الفعل هاهنا وضعية شارطة ببقائه فاعلاً لا صيرورته مبتدأ؛ لأنّ سلوكه مسلك المبتدأ سيفقده المعنى المراد منه.

٥٥. جوانب من نظرية النحو ص١٨٥.

٥٦. ينظر الملفوظية ص١٠، وأسباب التعدد في التحليل النحوي ص٧، واللسانيات واللغة العربية ص١٢٨.

٥٧. لأنّ الفاعل بعد الفعل في الأصل.

٥٨. الكتاب ٣٧٩/٣.

٥٩. الخصائص ٣٠٨/١-٣٠٩.

٦٠. الكتاب ١٠٢/٣.

٦١. الكتاب ١٠٢/٣.

٦٢. الكتاب ١٠٢/٣.

٦٣. الكتاب ١٠٢/٣.

٦٤. ينظر معاني النحو ١٧/١، والمنهج الوصفي ص٢٨٩. والبحث الدلالي في كتاب سيبويه ص٢٣٩.

٦٥. الكتاب ٧٢/٣.

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم.

١- آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه-د. بشير أبرير – مجلة كلية الآداب واللغات- العدد (١٠)- جامعة محمد خيضر بسكرة-٢٠١٢م.

٢- أسباب التعدد في التحليل النحوي (بحث)-د. محمود حسن الجاسم – مجمع اللغة العربية –جامعة حلب.

٣- أثر الأعراف الاجتماعية في مسيرة العربية – د. محمد رباع – مجلة البلقاء للبحوث والدراسات- المجلد(١١) -العدد(١) -٢٠٠٥م.

٤- أثر القراءة الافتراضية في التخريجات النحوية –دراسة في التراث-عرابي أحمد-مجلة جذور – المجلد(١٢) -العدد (٣).

٥- الاستعمال اللغوي وعلم المخاطب في كتاب سيبويه –مقال الكتروني على موقع شبكة الفصيح.

٦- الاستقراء والمنهج العلمي –د. محمود محمد فهمي زيدان-دار المعرفة الجامعية الإسكندرية-١٩٨٨م.

٧- البحث الدلالي في كتاب سيبويه – دلخوش جار الله حسين-دار دجلة –عمان-الأردن-٢٠٠٧م.

٨- البحث النحوي عند الأصوليين-د. مصطفى جمال الدين-منشورات وزارة الثقافة والإعلام –دار الرشيد للنشر-١٩٨٠م.

٩- بلاغة العطف في القرآن الكريم –د. عفت الشرقاوي-دار النهضة العربية للطباعة والنشر-بيروت-١٩٨١م.

١٠- بنيوية - د. عبد الله الغذامي – مجلة عالم الفكر– المجلد(٢٧) -العدد(٤) -الكويت-١٩٩٩م.

١١- تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين-جورج مونان-ترجمة د. بدر الدين القاسم –مطبعة جامعة دمشق -١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

١٢- التبصرة في أصول الفقه –الشيرازي-شرح وتحقيق حسن هيتو –دار الفكر-دمشق-بيروت-١٩٨٠م.

١٣- التفكير اللساني في الحضارة العربية –د. عبد السلام المسدي – الدار العربية للكتاب – تونس-١٩٨١م.

١٤- جوانب من نظرية النحو – نعوم تشومسكي-ترجمة مرتضى جواد باقر-مطابع جامعة الموصل-١٩٨٥م.

١٥- الخصائص-أبو الفتح عثمان بن جني(٣٩٢هـ)-تحقيق: محمد علي النجار- دار الهدى للطباعة والنشر- ط٢- بيروت- (د.ت).

١٦- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج لساني معاصر –د. عبد الله الغذامي –النادي الأدبي الثقافي-ط١-السعودية-١٩٨٥م.

١٧- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون – أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي(٧٥٦هـ)- تحقيق: أحمد الخراط- دار القلم –دمشق-(د.ت).

١٨- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني(-٤٧١هـ) – تحقيق: محمود محمد شاكر-مكتبة الخانجي-ط٥- القاهرة-٢٠٠٤م.

١٩- علم اللغة الاجتماعي-هدسون -ترجمة محمود

عبد الغني عياد-دار الشؤون الثقافية العامة-بغداد-١٩٨٧م.
٢٠- قواعد تحويلية للغة العربية – محمد علي الخولي-دار المريخ-المملكة العربية السعودية-١٩٨١م.
٢١- كتاب سيبويه-أبو بشر عثمان بن قنبر(-١٨٠هـ)- تحقيق: عبد السلام محمد هارون- عالم الكتب –بيروت-(د.ت).
٢٢- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب – محمد خطابي –المركز الثقافي العربي-ط١-١٩٩١م.
٢٣- اللسانيات واللغة العربية –عبد القادر الفاسي الفهري –منشورات عويدات –بيروت-١٩٨٦م.
٢٤- اللغة العربية معناها ومبناها –د. تمام حسان-الهيئة المصرية العامة للكتاب –القاهرة -١٩٧٣م.
٢٥- المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية في العالم العربي –مجلة اللسانيات –المجلد(١) -العدد(٢) -٢٠١٢م.
٢٦- المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم –خليفة الميساوي-ط١-٢٠١٣ – الجزائر.
٢٧- معاني النحو-د. فاضل السامرائي-مطبعة التعليم العالي –جامعة الموصل-١٩٨٧م.
٢٨-منهاج البلغاء وسراج الأدباء –أبو الحسن حازم القرطاجني –تحقيق: الحبيب بن الخوجة –الدار العربية-تونس -٢٠٠٨م.
٢٩- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه –د. نوزاد أحمد حسن-دار دجلة -ط١ –عمان-(د.ت).
٣٠- الملفوظية- جان سيرفوني- ترجمة د. قاسم المقداد-منشورات اتحاد الكتاب العرب-١٩٩٨م.
٣١- النحو العربي والبنيوية واختلافها النظري والمنهجي –عبد الرحمن الحاج صالح-مجلة الآداب – العدد(٧) -جامعة قسنطينة.
٣٢- نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد (دراسة عن منهج سيبويه في النحو) -مايكل جي كارتر-مجلة المورد – دار الشؤون الثقافية العامة –المجلد(٢٠)- العدد(١) -١٤١٢هـ -١٩٩٢م.
٣٣- نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها –د. أحمد عزوز-مجلة التراث-العددان(٨١-٨٢) -دمشق-٢٠٠١م.
٣٤- نظرية الاستخفاف والاستثقال-بيض القول ميلود –الجزائر -٢٠٠٩م.
٣٥- الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه-د. نهاد الموسى-عمان -الأردن -١٣٥٣هـ.
٣٦- الوظيفية في كتاب سيبويه-أطروحة دكتوراه-د. رجاء عجيل الحسناوي-جامعة كربلاء-كلية العلوم الإنسانية -٢٠١٣م.